

## مراسلات

## رسائل كافكا إلى ميلينا: الكتابة عقاراً ضد الهشاشة

جوان نتر

بغرائبية كافكا (1883 - 1924) وطريقته المعتادة، تبدو رسائله إلى ميلينا دخولاً في سرد طويل معتم، لشدة ما يغلب على الرسائل من سوداوية مفرطة لا تغيب معها الخيوط الأولى لرغبة ما خفية في الانتحار وإنهاء المهزلة. هذا ما يبدو جلياً للقارئ، مهزلة الحياة وهشاشة كافكا ذاته الذي يغرق في الكتابة كعقار مضاد لتلك الهشاشة. وعلى الطرف الآخر، يلاحظ القارئ تلك الرتبة في حياة كافكا لولا هذه الرسائل.

في «رسائل إلى ميلينا» (1952) الصادر بترجمته العربية عن «دار الأهلية» (2017) - ترجمة هبة حمدان ومراجعة وتدقيق محمد حنون) يبدو كافكا مرحاً في بعض الأحيان، كما يظهر البؤس على الوتيرة عينها بطريقة يمكن وصفها بالـ «عجيبة». ذاك التواتر في المزاج، التواتر الكفيل بخلق نوع من الاستفزاز لدى القارئ. عموماً، فجميع أعمال كافكا تخلق ذاك الاستفزاز اللذيذ الذي يجعلك متأهباً لأمر غريبة قادمة ستحصل في الصفحات المقبلة. عالم مركب، معقد، مكوّن من أمزجة متعددة داخل المزاج الواحد، وتأتي الرسائل إلى المحبوبة لتكمل الصورة القائمة لأكثر الكتاب إثارة للنقاش والتفسير.

ميلينا، هي الحلم ليس فقط بالنسبة لكافكا، كاتب اليوميات، بل هي كذلك لكل الكتاب «الكتاب» إن جاز التعبير. لكل الصراعات التي يمرّ فيها كافكا ويدونها على شكل رسائل، تعدو نصوصاً مقدّسة مكتوبة بتعب لحظات الانتظار التي تحيل التأمل إلى فعل إدماني يداّب عليه كاتب الرسائل كي يحافظ على مزاجه السيئ مهما كان الثمن؛ تصادف كافكا تماماً كما عرفناه

## رواية

## محسن الوكيل... المغرب في مهبّ «ريح الشركي»

سومر شحادة

في روايته «ريح الشركي» (دار الساقى)، يسرد الكاتب المغربي محسن الوكيل حياة الناس أواخر حكم السعديين للمغرب، مكتفياً بتحديد الزمن، من دون بناء عالمه الروائي على وقائع تاريخية حقيقية. إنما نزع إلى تخيل الأحداث، لتعبر الحكاية زمانها إلى أزمنة لا تتوقف عن تكرار ذاتها:

تتنوع المحسن التي تواجهها الشخصيات، لتشكل بمجموعها العقدة التي لا يسعي الكاتب إلى حلها وإنما إلى بلورتها فقط. وفي ذلك تكمن مقولة الرواية الفنية: إن إن الطاعون والمخزن هما الأمر ذاته، ويرمزهما الكاتب في عنوان روايته «ريح الشركي»، وهي إحدى تسميات الرياح المحلية الجافة. بالتالي، يأخذ العنوان الشكل الرمزي للمعاناة التي تجسدها الرواية.

تبدأ الرواية من مشهد استعراضي لشاب يتبول على الناس المجتمعين في إحدى ساحات مدينة فاس، رافضاً الارتهان العام لإرادة البلاط، لا سيما أن أخاه يُخصى في ذلك الوقت كي يصير من غلمان الخليفة. يلاحق الجمهور الشاب بغضب عارم، كما لو أنه سبب الماسي التي تحل بالبلاط. وتنتج عجزاً تتقاسم طعام الكلاب والقطط جانبا، مبررة ذلك، بأن مصاحبة الكلاب الشاردة خير من مصاحبة كلاب المخزن، في حين يعبر أحمد بلانكو شوارع فاس ويسأل نفسه: «هل يوجد في هذا الزمن الأغبر سلعة أرخص من البشر؟». إن تحليل الصفحات الأولى يقود إلى فهم السرد المنضبط الذي اعتمده الكاتب.

في أعماله الخالدة، نشاهد الانقلاب المزاجي بين رسالة وأخرى، مما يترك القارئ نفسه حائراً أمامها. تبدأ الرسائل بالتحديد في نيسان (أبريل) 1920. الرسالة الأولى من ميلينا المتعبة من زواجها في فيينا، حيث لا ارتباط بينها وبين كافكا إلا روحياً. التواصل الروحي الذي يعطي البعد الأوسع لمعنى كتابة تلك الرسائل، حيث يخيل للقارئ أن الكتابة ستكون نوعاً من الخلاص المرغى. يمكن اعتبار الرسائل نوعاً من التدوين الذاتي، بحيث أن السيرة الذاتية يمكن أن تأخذ القارئ في رحلة عميقة نحو حياة كافكا الداخلية، مخاوفه، وهذا ما يتجلى في الرسائل بمحملها، التي تأخذ منحى عاطفياً، فكرياً، وجدانياً.

«كان أول من نشر كتاب رسائل إلى ميلينا هو ويلي هاس صديق مشترك بين ميلينا وكافكا. اهتمته ميلينا على الرسائل قبل الحرب الألمانية، فقام هاس بنشرها عام 1952». حياة ميلينا لا تقل صعوبة ومعاناة عن حياة كافكا: الإدمان، العلاقات، التهزّب والكسل. لكن إلى جانب كل ذلك، ثمة كتابة كانت ميلينا تحرص على المضي قدماً فيها، بالإضافة إلى العمل على كتب كافكا، إلى أن أصيبت على إثر حملها من زواجها الثاني بمضاعفات تسببت في شلل جزئي في رجلها اليسرى. ولم تتعاف منه إطلاقاً، ما أدى إلى إدمانها على المورفين الذي أوقفها عن الكتابة، ناهيك بتسبب الإدمان بإنهاء علاقتها الزوجية الثانية.

يبقى الطرف الآخر الخفي، رسائل ميلينا التي أنثفت. ربما كان ليتسنى لنا التعرف أكثر على الحب وفلسفته العميقة، العلاقة الروحية، ولن نخوض هنا في التصنيف، فما كتبه كافكا عبر هذه الرسائل هو شحنات قد نسمع



عالم  
مركب،  
معقد،  
مكوّن  
من أمزجة  
متعدّدة  
داخل  
المزاج  
الواحد

رسالة من سؤال. صحيح أنه أمر بديهي في أي رسالة، لكن مع كافكا تغدو المسألة أعمق. فأسئلة كافكا تدور حول أشياء يعتقد القارئ لأعماله الأخرى أنه مُقدّم على كتابة الأجوبة على تلك الرسائل في شكل نصّ سردي. هذا ما يجعل التأمل في لحظات كتابة كافكا لتلك الرسائل وحالته النفسانية أمراً ملغزاً ودوناً فائدة من دون استعمال التخيل واستحضار جمال ميلينا! الأخيرة التي التقاها للمرة الأولى في فيينا، لتصبح فيما بعد المتنفّس والحلم الأكبر لكافكا أو ربما مخزناً يحافظ على أسراره وحبّه اللا منتهي. المزاج المتقلب لكافكا بين الرسالة والأخرى هو السمة الأكبر المضافة إلى الرسائل، هذا ليس غريباً على رائد السوداوية والكابوسية في الكتابة. الكوايس واضحة في الرسائل وضوحاً شديداً. الهذيان الواردة تفصح عن الحالة «الكافكاوية» المعتادة: «دائماً تريد معرفة إن كنت أحبك ميلينا، ولكنّه سؤال صعب الجواب. لا يمكن الإجابة عنه في رسالة، ليس حتى في رسالة الأحد الماضي. أضمن أنني سأقول لك الجواب حين نتقابل المرة القادمة، إن لم تخني عباراتي، لكن لا يجب أن ترسليني عن قدومي إلى فيينا، فلن أتمكن من ذلك، فكلما ذكرت ذلك، أشعر كأنك تشغلني ناراً في جلدتي، والتي هي أصلاً محرقة، ودائماً تحرق وتحرق لكنها لا تحرق، بالتحقيقة أشعر كأن الشعلات تزداد، وأنا واثق من أنك لا تريد ذلك».

أن تكون الكتابة، الكتابة وحدها، مركز التفكير لدى الإنسان، هذا ما حاوله كافكا أثناء كتابة تلك الرسائل. المركزية الشعورية هي الكتابة، أو ربما نسيان كل أمر حياتي والخوض في غمار التدوين لأجل خلاص ما.

أبحث عنها، إنه خطوك أنت، لو لم تكوني بمثل ذلك الجمال، لما اضطرت أن أحملها طوال الوقت معي»، هذا مجتزأ من رسالة بعثها كافكا في 31 تموز (يوليو) 1920 إلى ميلينا فور سماعه نبأ مرضها، وفيها يتحدث كافكا عن المرض، مسهباً بعد المقدمة المجترزة أنفة الذكر: «والآن ماذا قال عن الالتهاب على رئتيك، لا أتوقع أنه نصحك بالصيام أو حمل الأمتعة، وهل نصحك بأن عليك أن تتحسني لأجلي، أم إنه لم يذكرني إطلاقاً؟». كمّ الأسئلة في الرسائل المدونة عظيم. لا تكاد تخلو

صوت تنفّس المدون أثناء تدوينها. بتلك الطريقة الساحرة، يمضي كافكا في شرح يومياته لميلينا والاسترسال في الأسئلة والأطمئنات. كما أن القارئ سيلاحظ أن الرسائل كُتبت ليس بغرض النشر، وإنما بغرض البوح، لما فيها من خصوصيات تدخل فيها ويلي هاس لاحقاً حذفاً لبعض الفقرات التي توقع أنها قد تؤذي بعض الناس الذين كانوا على قيد الحياة آنذاك. «في هذه اللحظة أنا مشتت وحزين، أضعت برقيتك، كيف حدث ذلك لا يمكنها أن تضيع! إن ذلك سيئ، إنني

لغة شاعرية  
عند حديثه  
عن المدن، لا  
سيما فاس  
ومراكش



بدأت مقادة بمعادلة ثابتة وحمية جعلت الشخصيات تفتقد للتناقض رغم الدراما التي اتسمت بها الرواية. إذ كانت شخصيات تتسم بروح مستقرة. إلى جانب ذلك، تلتفت في الرواية اللغة الشعرية التي ينقلب إليها الراوي عند حديثه عن المدن، لا سيما فاس ومراكش. إذ تصير لغة بين محبين، إلى جانب تلك الرغبة بأنسنة هاتين المدينتين، اللتين لم تتوقفا عن تحويل سكانهما إلى رعايا وأصناف غير متساوية من البشر. إن ذاك التضاد الذي يبرز جلياً في حديثه عن المدن وعن أهلها، يجعل من فاس ما يفوق الجغرافيا. إنها الشخصية الأبرز التي تتوالد منها حياة ناسها، كما لو أنهم أولاد عاقون.

في المرض، وهو مكان الحجر الصحي المفروض على المرضى والمعارضين للحكم، يزف أحمد بلانكو إلى زهرة المقر، ويحمل زفافهما دلالات متعددة. بينما يتقاتل السلاطين والقادة على الحكم، يستمر معارضوهم في ممارسة الحياة، بينما يخصى الغلمان ويستلم المخصيون قيادة الجيش، يكمل الناس العاديون حياتهم أصحاء في مكان آخر. رغم صلاب المنطق الذي قاد المصائر المختلفة، ويودي إلى فكرة تدعو إلى اليأس؛ إذ يموت الشرير ويبقى الشر، يذهب طاغية ليأتي آخر أكثر دهاءً وجبروتاً، لكن، هنالك، في الهوامش ينمو رفض دائم ويولد أحراراً أكثر حرماً وأكثر صبراً ودراية على قيادة معارك الخير. لم تخرج الرواية عن هذه الثنائيات البسيطة رغم رغبة كاتبها بجعلها رواية ملحمة. لا تقول الشيء وعكسه، إنما تتضمنه في الأمر ذاته.

بين الابن وأبيه وقائد الجيش مجموعة من الثوار يعرضون على السلطان فتح أبواب فاس أمامه، على أن يعيد الحقوق لأصحابها. لكن السلطان يعيد لهم رأس رسولهم إليه. ويدخل فاس منتصراً. إن المصائر في الرواية برمتها قد بنيت وفق قاعدة السبب والنتيجة، حتى

وينطلق معها إلى إسبانيا. وهناك تتكشف الصفة التي عقدها مع شهد على قدر كبير من الخيبة. يحاصر جيش السلطان القادم من مراكش مدينة فاس. يتخلى قائد جيش الخليفة عن سيده، ليرتصد من موقعه معركة الأب والابن طمعاً بالنيل منهما. تبرز

إذ تتابع الأحداث في باقي الصفحات وفق المعالجة السردية ذاتها للمشاهد التي يأخذها الكاتب من حياة شخصه لتصوير طبيعتهم. ويستخدم الراوي مفردات توحى بطبيعة زمن الحدث مثل: البغايا والغلمان والبلاط والطاعون، في جو من التامر والفتن والمكائد، إضافة إلى المخزن وهو التسمية التي كانت تطلق على النظام السياسي آنذاك. نظام يفتك بالرعية التي ما لبثت تفتك ببعضها البعض. يصير، المخزن أهم من الأخ بالنسبة لرجالها. ويصير الولاء للخليفة مقترناً بالولاء لله، إلى درجة أن الحجر الصحي يُفرض على مرضى الطاعون وعلى العصاة كذلك!

يبني الكاتب حكيته وفق منطق الزمن الرديء. يكون هروب حسن المقرري من فاس الحدث الأبرز الذي تبدأ منه الرواية بالتصاعد الدرامي. ينذر الصراف المقرري بضرورة الهروب. ثم يقع بعد هروب المقرري في شرك الخليفة. يتعرض المقرري للسلب في طريقه إلى مراكش، في مسعى لإيصال معاناة أهل فاس إلى السلطان، والد الخليفة، لكي يجيء ويرفع الظلم عنهم. ينقذ المقرري أحد الذين كان قد اعتقهم في السابق. يصير حسن الناجي بعدما كان حسن الثائر. يصل نبا هروبه إلى مراكش قبل وصوله. يُقتل الصراف منذراً للخليفة وموت يشبه ما حكم عليه به. يتوه حسن عن غايته في مراكش، مثلما تاه من بقي من أهله في فاس. يهرب حامد وتقاد زهرة إلى الخليفة. تضيع أمواله في مراكش. يتعلق بعاهرة. تضع نفسها في مقابل بلاد. يختارها